

اختلف علماء الفلك قديماً على نشأة الكون؛ وهل للكون بداية؟ وإذا كان للكون بداية، كيف ومتى حصلت؟ من أنشأ هذه البداية؟ حتى أتى علم الفلك الحديث وحسم هذه المسألة، وقدم الدليل المادي لنشأة الكون، وأجاب على كيف ومتى. نحن المسلمون نؤمن أن الخالق - سبحانه وتعالى - هو خالق كل شيء، والوكيل عليه. وقد أخبرنا القرآن كيف بدأ الكون في آية واحدة. وتوضح عظمة وإعجاز الآية الكريمة: (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ أَفْرَوْا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَنَانِتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ لَدُلَّ شَيْءً حَيًّا أَفَلَا يَؤْمِنُونَ) (الأنبيا 30)، في كونها أتت قبل أكثر من 1400 سنة، بينما لم يتوصل العلم إلى هذه الحقائق (عدد وتسلسل صحة ودقة Accuracies المعلومات التي احتوتها) إلا قبل أقل من 100 سنة.

المرتق ضد المفتق، فَارْتَقَتْ أَيِ الْوَتَّامَ، والمرتق بمعنى الضم والالتحام. وقد أورد القرطبي في تفسير قوله تعالى: (كانتا) لأنهما صنفان، ولأنه يعبر عن السماوات بلفظ الواحد بسماء، ولأن السماوات كانت سماء واحدة. وفي تفسير (رتقا) قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة: (يعني أنهما كانتا شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما). يقول ابن كثير في تفسير (كانتا رتقا): أي كان الجمع متصلاً بعضه ببعض متداصقاً متراكماً فوق بعض في ابتداء الأمر.

لننظر الآن إلى عدد الحقائق في الآية 30 من سورة الأنبياء التي تخبرنا كيف بدأ الكون:

1 - قال الله تعالى: (أَوَلَمْ) استفهام إنكاري يتضح مدى بلاغته في السياق حين لم يؤمنوا بعد أن علموا.

2 - قال الله تعالى: (يَرَّ) بمعنى يعلم. والحقيقة هي، أن اكتشاف بداية هذا الكون تطلب علماً وليس إيماناً.

3 - قال الله تعالى: (الَّذِينَ) أي جمع، والحقيقة هي، أن من اكتشف كيف ومتى بدأ الكون هم عدة أشخاص.

4 - قال الله تعالى: (لَكَافَرُوا) أي غير مسلمين. والحقيقة هي، أن غير المسلمين هم الذين اكتشفوا كيف ومتى بدأ الكون.

5 - قال الله تعالى: (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) معاً أي الكون كله. والحقيقة هي، أن الكون كله كان رتقاً أي كتلة واحدة.

6 - قال الله تعالى: (السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(أن الله - سبحانه وتعالى - قدم السماوات على الأرض. والحقيقة هي، أن خلق السماوات أي الفضاء يجب أن يسبق خلق الطاقة والمادة أو يصاحبه، ومن المستحيل أن يكون العكس. ويقصد بالسماوات المكان أو الفضاء space، الذي يحتوي على كل الأجرام السماوية. أما الأرض، فهي رمز للمادة التي تكونت منها المجرات والسدم وكل الأجرام السماوية الأخرى بما فيها الأرض. هذه المادة إما أن تكون مرئية (والتي تعرف علمياً بـ matter baryonic وتشكل 4% من مجموع ما في الكون من مادة وطاقة) أو غير مرئية (والتي تعرف علمياً بالمادة المظلمة matter dark وتشكل 23% من مجموع الكون، والطاقة المظلمة energy dark وتشكل 73% من مجموع الكون).

7 - أن كلمة (رَبَّقَا)، أي أوصل بعضه بعضاً، تقترح أن مكونات المرتق إما أن تكون من جسيم واحد Particle ولكنه متفرق فرتق أو أكثر من جسيم واحد، ثم رتقوا. بعبارة أخرى: أن الجميع كان متصلاً ببعضه ببعض متلاصقاً مترابطاً فوق بعض في ابتداء الأمر. والحقيقة هي، أن كل ما في الكون كان متلاصقاً في (مادة غير معروفة لدى البشر حتى الآن، أي لم يكن هناك فضاء ولا طاقة ولا مادة ولا زمن كما نعرفها الآن).

8 - حينما وصف الله - سبحانه - السماوات بالمرتق فهذا يعني أن السماوات - أي الفضاء - أيضاً مادة. والحقيقة هي، أن العلم الحديث توصل إلى أن الفضاء مادة ويحتوي الأجرام السماوية ويجبرها كيف تسبح، وهو ما عبر عنه الفيزيائي البروفيسور جان أركيبالد ويدار بقوله: (how it telling ,mass grips Spacetime)

(to move, and mass grips spacetime, telling it how to curve.

9 - حيث لم يكن هناك زمان ولا سماوات: أي فضاء يحتوي مادة المرتق، فإن مادة المرتق صغيرة جداً لا يمكن تخيل حجمها (أي هي المنتهى للمكان وللزمان)، هو ما يعرف في علم الفلك بالمتفردة singularity.

10 - هناك حقيقتان زمنيتان حتى الآن في خلق الكون: حقبة ما قبل المرتق وحقبة المرتق، فلكي يكون هناك رتق فلا بد من وجود كتلة/كتل تسبق المرتق.

11 - قال الله تعالى: (فَفَتَقْنَا لَهُمَ) (فَفَتَقْنَا لَهُمَ) أي أن بدء الكون كان فتقاً وأن فتق الشيء يتضمن القوة والمشددة في الفصل. والحقيقة، أن هذا هو ما حصل بالفعل أثناء وخلال الانفجار الكبير Bang Big the، وهذه حقبة زمنية ثالثة.

12 - أن الفضاء في (فَفَتَقْنَا لَهُمَ) تتضمن التوالي المباشر بعد المرتق. والحقيقة هي أن البشـــــرية لم تتوصل مادياً بعد إلى هذه النتيجة، وإن كان هناك بعض التخمينات لبعض علماء الفلك أن هذا قد يكون حصل أو سوف يحصل وسموه الملتأم الكبير Big the Bang.

13 - لقد أخبرتنا الآية بما آلت إليه مادة المرتق، ولكن الآية لم تخبرنا عن ماهية مادة المرتق ذاتها، وكيفية ذلك المرتق، والحقيقة أنه من المستحيل للبشرية معرفة مكونات المرتق؛ لأن الفتق دمر تلك (المادة) والكيفية التي كانت فيها تدميراً في الانفجار الكبير.

14 - أن الماء أساس الحياة، فحيث توجد حياة يوجد ماء، أي أن الماء يسبق وجود أي حياة، وهاتان حقيقتان زمنيتان ثابتتان. وقد تكون حقبة وجود الماء حقبة زمنية رابعة وحقبة، وجود حياة حقبة زمنية خامسة.

15 - أن تضمين (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) في نفس الآية وترتيبها بعد ذكر الفتق تشير إلى أن هذا الكون مقدر له وجود ماء فيه، ثم حياة، ثم ظهور الجنس البشري، أي أن الكون دُيِّئَ لكي يستقبل البشر، وهو ما يعرف في علم الفلك بالمبدأ الإنسان الكوني (principle Cosmological anthropic The). وظهور الجنس البشري في الكون قد يكون الحقبة الزمنية السادسة.

16 - بعد أن أخبر الله - سبحانه - أن غير مسلمين هم الذين سوف يكتشفون كيفية زمن بدء الكون، يوبخ الحق - سبحانه وتعالى - الكافرين الذين اكتشفوا ذلك بعد الإيمان فقال: (أَفَنُؤْمِنُ) وكان الحق قد استنكر عليهم علمهم ببدء الكون. والحقيقة هي أن الأشخاص الذين اكتشفوا علمياً كيفية بدء الكون لم يؤمنوا بالإسلام، وبعضهم حتى لم يؤمن بالله - عز وجل.

أخيراً:

إن المست الحقب الزمنية المذكورة سابقاً قد تفسر قول الحق - سبحانه: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...) (الفرقان 59). والله أعلم.

إن عدد الحقائق وتسلسلها المذكورة سابقاً وبهذا التسلسل وبهذه الدقة، لم يتوصل إليها البشر قط إلا خلال المئة السنة الماضية. فكيف عرف كل هذه الحقائق إنسان أمي من قوم أميين ظهر قبل أكثر من 1400 سنة؟ لا بد أن يكون علماً خارج الإطار البشري. وصدق الحق الخالق القائل في محكم تنزيله: (إِنَّ هُوَ الَّذِي يُدْعِي لِكُلِّ شَيْءٍ بِأَسْمَاءِهِ * وَلَقَدْ عَلَّمَ النَّبَاهُ بَعْدَ حِينٍ).